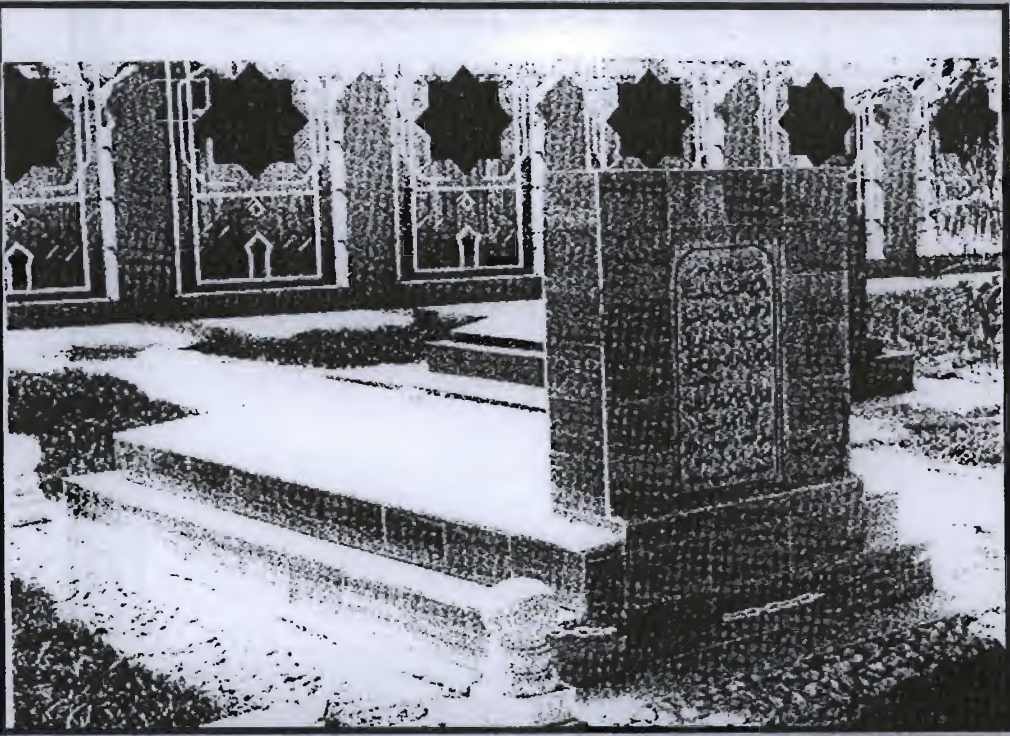


صفحة من تاريخ البحرين

نبذة تاريخية عن الأسرة الحاكمة في البحرين

من يبحث في تاريخ البحرين سيجد أن أسرة آل خليفة هي الأسرة التي حكمت البحرين منذ تحريرها من النفوذ الأجنبي عام ١٧٨٣ على يد الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة . ولابد أن نذكر موطنها الأصلي ونسبها وسبب نزوحها ومتى نزحت من مزارعها .



قبر الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة (أحمد الفاتح) توفي في المنامة

خلال قريين (١٧٨٣-١٩٨٣م)



آثار قلعة مريير
التي بناها الشيخ
محمد بن خليفة آل
خليفة في الزبارة

بقلم :
الدكتور علي
أباحسين

إن موطن أسرة آل خليفة في نجد في منطقة تعرف بـ (الهدار) والأفلاج قرب وادي الدواسر وهي منطقة غنية ببساتين النخيل وغيرها من الأشجار البرية مثل القاف والسلم والسر والطلح . وأهم مدنها مدينة (ليلى)^(١) التي تبعد ثلثمائة وثلاثين كيلومترا عن الرياض، وخمسمائة وخمسة وعشرين كيلومترا عن البحرين .



ومما يذكر أن مدينة ليلي حافظت كثيراً على تراثها المعماري القديم حيث تجد كثيراً من سطوح منازلها مزينةً بنقوش تسمى (الحمام) كما هو معروف عندنا بالبحرين . كما أن مواد البناء المستخدمة هي نفس ما كان يستخدم للبناء في البحرين من الطين والحجارة وسقفت بجذوع النخيل . وجدير بالذكر كثرة العيون الطبيعية في منطقة الأفلاج . والأفلاج هي جمع (فلج) أي الماء الجاري من العين لانفلاجه أي بانفتاحه . كذلك (الهدار) يعني السيل الكثير الهدران . وتمتد الأفلاج على مسافة لا تقل عن مائتي كيلومتر من وادي (برك) شمالاً إلى وادي (الضبيعة) جنوباً . ومن الأماكن المعروفة بالأفلاج (الغيل) : أي الأرض الرخوة و(السيح) أي الماء الجاري على سطح الأرض و(سحاب) وهو وادي تطل عليه ليلي، ومعروف أنه الغيم الممطر . ثم (القمع ، وبرك ، والمعيدر، ونباع) .

نخلص من كل ذلك إلى أن منطقة الأفلاج غنية بمياهها وزراعتها وهذا ما يفسر استقرار القبائل النازحة منها على سواحل الخليج الغنية بالعيون العذبة ثم تأقلمها هناك . ويعتقد الرحالة (فلبلي) الذي زار الأفلاج بأنها كانت منطقة (فينيقية) حيث وجد آثار مقابرهم فيها .

وقد كانت منطقة الأفلاج ذات أهمية تجارية تمر عبرها السلع من الشرق إلى الغرب عن طريق الخليج العربي حيث تصل ميناء (العقير) ثم الأحساء ثم اليمامة فالأفلاج ومنها إلى (وادي الدواسر) ثم ساحل البحر الأحمر الذي كان يسمى بـ (بحر قلزم) أو بحر مكة في الخرائط القديمة . وقد حدث ذلك أيام دولة (السبئيين) في اليمن ٨٠٠ - ١١٥ قبل الميلاد أي أن استخدم الرومان البحر الأحمر كطريق يؤدي إلى الخليج، فاندثر طريق التجارة عبر الأفلاج ومن مدن الأفلاج (البديع) التي سكنتها قبيلة (جميلة)، وهي من عنزه وتبعد عن (ليلى) حوالي ٣٢ كيلومتراً جنوباً، وعن وادي الدواسر بنحو ٣٠٠ كيلومتراً،

وهي مدينة صغيرة اشتهرت بالزراعة وبها قصر (سلمى) الذي بناه (فيصل الجميلي) ولا يزال موجوداً . يزيد طول سورته على ٨٠٠ قدم، ويحيط به خندق ماء بعمق خمسة أمتار، وفيه ثمانية أبراج، وباب القصر أو القلعة في جهة الشرق، وعرضه اثنا عشر قدماً.

وتروى قصة طريفة عن بناء ذلك (الحصن) وهي أن (فيصل الجميلي) كان يدفع إتاوة سنوية لشريف مكة، وفي إحدى المرات التي ذهب فيها إلى مكة ليدفع الإتاوة مرّاً على (غار ضب) حصنه الضب عن السيل بأن وضع سداً من التراب والحجارة ليحمي جحره من تدفق السيل فرسخت الفكرة في رأسه، وحين عاد إلى قومه شرع في بناء الحصن (سلمى) وحفر حوله الخندق وكف عن دفع الإتاوة فأرسل له شريف مكة قوة لم تستطع دخول الحصن وعاد قائدها ليقول للشريف وجدنا (سلمى) أسفلها ماء وأعلاها في السماء، ويقال أن ذلك حدث قبل عام ١٠١٠ هجرية، وهي السنة التي توفي فيها الشريف حسن بن أبي نمي وهو في طريقه إلى نجد بعد أن فتح حصوناً في البديع والخرج والسالمية وقرية اليمامة أما عن كيفية بناء ذلك الحصن فقد بناه فيصل الجميلي بسبعة جدران متراسة مع ثمانية أبراج موزعة على جميع الجهات . ويذكر أن بطون جميلة في الهدار اختلفت وحدثت بينهم فتنة نزحوا على أثرها عن الهدار وسكن الدواسر قلعة (سلمى) .

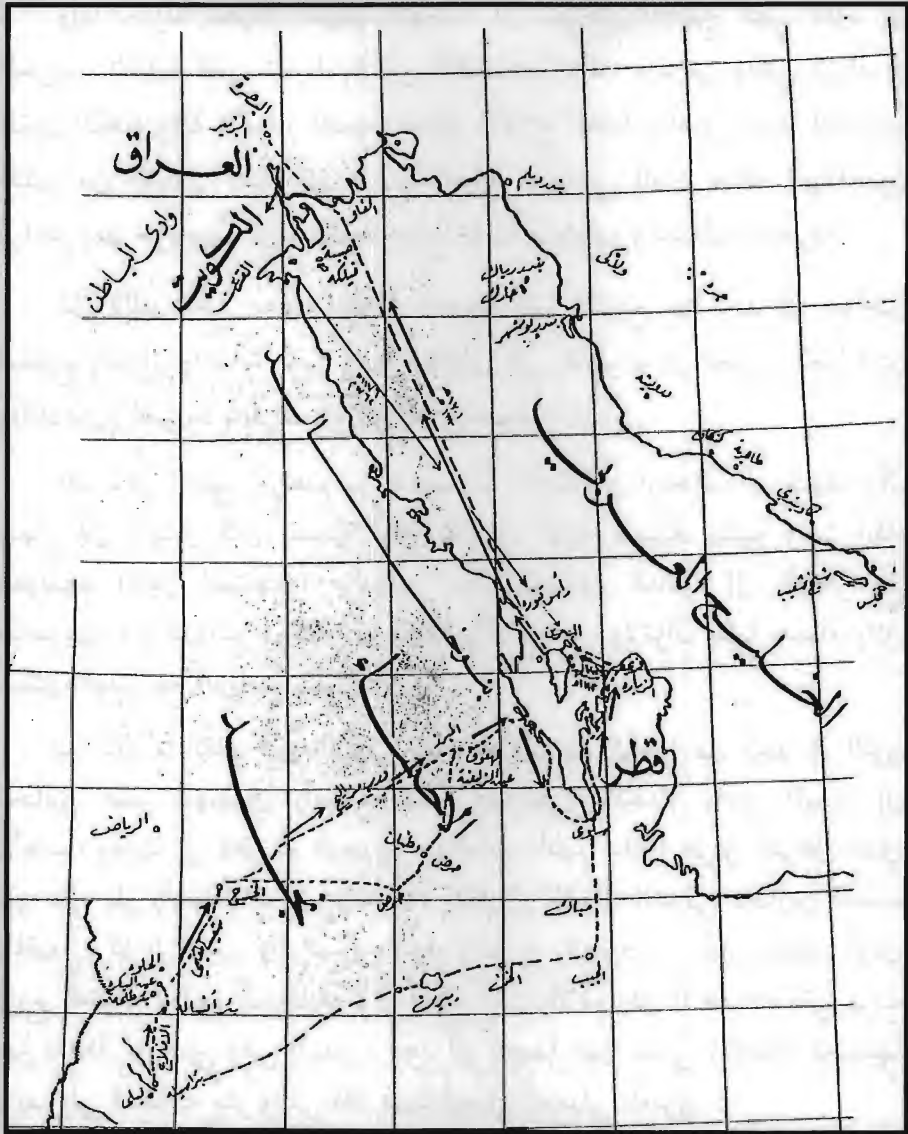
وفي رواية مرضي بن ناجي بن مرضي بن مدعث وهو من أهل المنطقة من قبيلة الدواسر، أن (جميلة) كانت تقطن الهدار والبديع والأفلاج وهي التي بنت قلعة (سلمى) بالهدار، والتي تقع في وادي الهدار الذي يقدر طوله بـ ١٥٠ كيلومتراً، وبالهدار آثار قلعة قديمة محاطة بخندق يطلق عليها اسم (صباحا) وهي التي سميت عليها قلعة (صباحا) بالزبارة والتي بناها الشيخ محمد بن خليفة الكبير وعلى نفس الأفكار وذلك في القرن الثاني عشر

الهجري . وقد بنيت قرية صباحا لتكون نقطة حصينة يصعب دخولها، حيث يحوطها خندق يملؤه الماء، كما أن عرض سورها بعرض سبعة أسوار بني من الطين والحجارة ويبلغ سمك حائط السور قرابة الأربعة الأمتار .

ولقد صممت القلعة على أن تكون قادرة على الاكتفاء الذاتي في حالة الحصار . وبها بئر ماء بالداخل ومخازن للتمور والحبوب واللحوم المجففة، ومسجد ومخازن للسلاح بالقرب منه . وجدير بالذكر أن أسماء الأماكن والحصون انتقلت من الأفلاج إلى قطر والبحرين مثل (الرفاع) و(البديع) و(صباحا) و(مرير) حيث يوجد موضع (الرفاع) في قطر وكذلك في البحرين ويوجد موضع يسمى (البدع) في قطر و(البديع) في البحرين، ومثل ذلك في الأفلاج (البديع) و (الرفاع) و (صباحا) وهي قلعة في البديع وقلعة في الزبارة ومرير وهي عين ماء في داخل قلعة صباحا والزبارة بينما هي شعب في جنوب الهدار، موضع سكنى أجدادهم .

وقد هاجر آل خليفة وأبناء عمومته من هذه المناطق إلى سواحل الخليج، ومن تخلف بقي يحمل اسم (النتيفات) من بطون (عنزة)، وقد نزل (العتوب) في سلوى، التي كانت ميناء (ليبيرين)، ويوجد أثر لمكان يطلق عليه (قرين بن وائل) قرب سلوى، وكان مرتبط خيل بني وائل . وقد تبين أن العتوب، وهم بنو وائل، قد نزلوا إلى الأحساء من وادي الهدار ثم إلى قطر ومنها إلى البحرين قبل ذهابهم إلى الكويت^(٢) .

ومن الثابت أن العتوب قد دخلوا البحرين سنة ١١١٢هـ (١٧٠٠ - ١٧٠١م) ولم يستقروا فيها، وقد قدموا لها من قطر، وحصلوا على أملاك في القطيف من آل عريعر نظير مساعدتهم لهم في امتلاك القطيف^(٣) . وهذا يعني أنهم نزلوا قطر سنة ١٠٨٣هـ (١٦٧١م) أثناء حكم براك بن عريعر، ومنها دخلوا البحرين وغادروها إلى البصرة ثم إلى الكويت عام (١٧٠٠م) .



خريطة توضح هجرة العتوب من نجد إلى الخليج العربي في أواخر القرن السابع عشر

الوثيقة ١٧.

AL WATHEEKAH -17

وإذا حاولنا معرفة أسباب الهجرة إلى سواحل الخليج فهي تعود إلى الحروب القبلية التي ترتبط بالأمور الاقتصادية كالماء والمرعى والتي تزداد في سنين القحط وقلة الأمطار لتصبح منطقة الأفلاج الغنية بالعيون هدفاً اقتصادياً لكثير من القبائل، هذا إلى جانب الفراغ السياسي الذي خلفه البرتغاليون وراءهم بعد خروجهم من منطقة الخليج الغنية بنخيلها وأصدافها البحرية .

كل ذلك شجع بعض القبائل العربية على النزوح من نجد إلى سواحل الخليج والعراق والشام . ومن أشهر القبائل التي هاجرت إلى العراق (العمارات) و(القدعان) لجزيرة (الفرات) و(الرولة) و(السبعة) للشام .

وقد ذكر الشيخ إبراهيم بن محمد آل خليفة أن ارتحال آل خليفة وآل صباح من الهدار كان بسبب نزاع نشأ في قبيلة جميلة بينهم وبين أبناء عموماتهم الذين استنجدوا بالدواسر بعد هزيمتهم فعادوا إلى الهدار مع مناصريهم من الدواسر ورحل آل خليفة وآل صباح، ولاتزال بقايا جميلة وائل تسكن الهدار مع الدواسر حتى الآن .

من كل ما تقدم فإن العتوب ومن حالفهم قد نزحوا من نجد في القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) بانحدار وادي الهدار إلى الأحساء ومنها إلى قطر ثم البحرين، والغالب أنهم سلكوا طريق القوافل الذي يمر على بئر (أسيله) ثم بئر (أنساله) ومنه إلى الشمال الشرقي محازين لشعب (المقيمي) ثم إلى درب (المزليج) باتجاه (المبرز) بالهفوف . ومن تحقيقنا لزمن نزوح العتوب ومنهم آل خليفة وآل صباح ومن والاهم وفق الأحداث التي مرت بها منطقة نزوحهم وهي الهدار، نجد أن بقربها عين تسمى (الوطأة) محيطها يزيد على ثمانمائة متر والتي قال فيها فيصل الجميلي العنزي :

لي ديرة بين (الوطأة) و(خرطم) سقاها الحيا وابتل بالماء فرعها

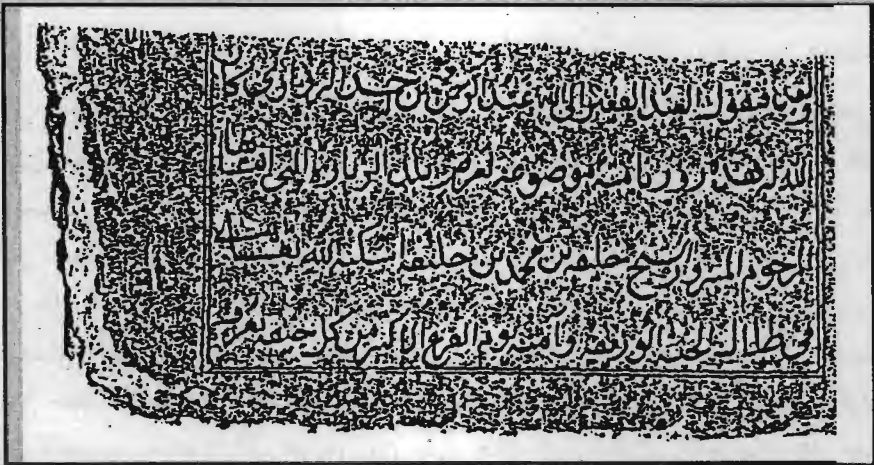
أقمنا بها (خمس وتسعين) حجة على ضميمها واللي يجي من هيمها

وللجميلي قصيدة طويلة فيها حنين إلى الهدار بعد أن تركها إثر حروب بين الجميليين وغيرهم بعد أن أقام الجميليون من عنزة في ديرة الهدار خمسة وتسعين سنة قبل أن ينزحوا منها في القرن الثاني عشر الهجري . فإذا علمنا من مصادر تواريخ نجد ومكة أن الشريف حسن بن أبي نمي سار إلى نجد ودخل البديع في الأفلاج، والتي فيها قصر سلمى، وغيرها من الحصون في الهدار وأخذ الضريبة من أهلها وكان ذلك حوالي ٩٨٨هـ، وقد أقام الجميلي ٩٥ حجة (سنة)، لذلك يصبح نزوح الجميليين في حوالي ١٠٨٣هـ . والراجح أن العتوب ساعدوا آل عريعر من بني خالد في احتلال الأحساء بعد ضعف النفوذ العثماني في العقد التاسع من القرن الحادي عشر الهجري وكان يحكم آل عريعر آنذاك (براك بن عريعر) وقد استولى على القطيف عام ١٠٨٣هـ (١٦٧١م) حيث قال أحد شعراء القطيف :

رأيت البدو آل حميد لما تولوا أحدثوا في الخط ظلما

أتى تاريخهم لما تولوا كفانا الله شرهم (طغى الما)^(٤)

ويستدل من ذلك التاريخ على تاريخ دخول العتوب إلى منطقة الأحساء ومنها إلى سلوى ثم (فريحة) شمال غربي قطر وهي ميناء مقابل للبحرين . وكانت البدع (الدوحة) في حكم (آل مسلم) وهم من بني خالد وموالين لآل عريعر . وسكناهم الفريحة سهل عليهم الاتصال بالبحرين لقرب المسافة وسهولة التنقل بدون جوازات سفر أو إجراءات جمارك مما سهل اشتغالهم بتجارة اللؤلؤ . كما أن أهل الأفلاج كغيرهم كانوا يأتون إلى سواحل الخليج العربي طلباً للرزق فيركبون الغوص وهم قد عرفوا السباحة والغوص في العيون الكثيرة في الأفلاج وما حولها، فليس ببعيد أن منهم من كان يأتي طلباً للرزق في ساحل الأحساء وجزر الخليج .



مفكرة (روزنامه)

لعام ۱۱۹۵ هـ

لعرض الزبارة التي

بناها الشيخ خليفة

بن محمد بن

خليفة



وصية أوقف فيها

الشيخ خليفة بن

محمد بن خليفة

كتبا في مكتبة ببلدة

الزبارة على طلبه

العلم

نزل العتوب قرب (سلوى) في آخر البحر، وكانت ميناء، إلى (يبيرين) وفيها مياه وآثار زراعة ونخيل . وهناك أثر مكان يطلق عليه (قرين وائل) قرب سلوى، وهو مرتبط خيل بني وائل وإن حطمه البدو في السنوات الأخيرة . ويحتمل أن العتوب، وهم من بني وائل، قد نزلوا من الأحساء عن هذه الطريق، خاصة وأن وادي الهدار ينعطف نحو الأحساء ثم إلى قطر ومنها إلى البحرين وذلك قبل ذهابهم إلى الكويت .

وقد ذكر المؤرخ (ديكسون) أن العتوب، بعد هجرتهم من الأفلاج، استقروا في قطر ومنها تفرقوا بين سواحل الخليج ثم اجتمعوا مرة أخرى في الكويت ولكنه لم يذكر تاريخ ذلك . أما (واردن)، الذي كان وقتئذ موظفاً في (بومباي)، فقد ذكر أن أجداد آل خليفة وآل صباح دخلوا الكويت عام ١٧١٦م الموافق ١١٢٩هـ بعد مكوثهم في قطر خمسين عاماً قبل ذلك التاريخ ويعني ذلك هجرتهم من الأفلاج عام ١٠٧١هـ (١٦٦٦م) . إلا أن واردن لم يستند في ذلك على وثائق مخطوطة^(٥) .

وإذا حاولنا التعرف على الأحوال الاجتماعية التي كانت سائدة في نجد في فترة نزوح آل خليفة ونزوح بعض بطون وأفخاذ وأسر القبائل من نجد إلى أطرافها لرأينا أن أسباباً تضافرت مع بعضها البعض فأدت إلى نزوح القبائل العربية إلى سواحل الخليج . فقد شهدت هذه الفترة، خاصة القرن السابع عشر، خروج البرتغاليين وانسحابهم من سواحل الخليج العربي ما أتاح الفرصة أمام بعض التجمعات القبلية للهجرة من مواطنها في شبه الجزيرة العربية متجهة نحو الساحل الغربي للخليج العربي، خاصة إذا علمنا أن سمة الحياة القبلية قوامها الترحال طلباً للرزق إلى المناطق ذات المرعى أو الزراعة والمياه

الوفيرة والنشاط التجاري . وتلك سمة من سمات الحياة القبلية في الصحراء منذ القدم .

وقد اندفعت بعض القبائل نحو سواحل الخليج العربي طلباً للخيرات كاللؤلؤ والأسماك وما تجلبه السفن من تجارة تأتيها من البلاد القاصية والدانية . وإذا أضفنا ما تعرضت له قبيلة (عنزة) التي منها (بني عتبة) من قحط شديد في أواخر القرن السابع عشر مما أدى إلى قلة الخيرات بالنسبة لعدد القبائل، فقد حدث قحط عظيم يسمى (صلهام) هلك فيه عدد كبير من الناس والدواب، وذلك في (وادي عدوان) واستمر من سنة ١٠٧٦ إلى ١٠٧٨ هـ (١٦٦٥ - ١٦٦٧ م) .

وهكذا فإنه نتيجة لتتالي القحط والأوبئة في أواخر القرن الحادي عشر أصبحت البلاد في ضائقة اقتصادية وهلك الكثير من الناس بسبب القحط ونشبت الحروب بين القبائل للتنازع على البقاء لقلة خيرات البلاد نتيجة لتعرضها للكوارث الطبيعية المتتالية . وهنا ينطبق عليهم قول أحد أدباء سدير في قصيدة منها :

غدا الناس أثلاثاً فثلت شريدة يلاوي صليب البين عارٍ وجائع
وثلت إلى بطن الثرى دفن ميت وثلت إلى الأرياف جال وناجع (*)
كل هذه الأسباب دفعت بعض القبائل إلى الهجرة صوب مناطق غنية بالخيرات كالعراق والحسا وسواحل الخليج .

أما عن الأحوال الاقتصادية والسياسية للمنطقة في ذلك التاريخ، فقد وجدنا أن هناك ثلاث قوى تتنازع السيطرة على ثروات الخليج وهي :

١ - القوى الأوروبية

القوى الأوروبية

كانت الأحوال السياسية في الفترة ما بين ١١١٢ - ١١١٣ هـ (١٧٠٠ - ١٧٠١م)، والتي ذكرتها المخطوطات والوثائق العثمانية تشير إلى تصارع القوى الخارجية فيما بينها مما سهل دخول العتوب للمنطقة واستقرارهم فيها . فبعد انحسار النفوذ البرتغالي، برزت القوة البريطانية والهولندية للسيطرة على التجارة في الخليج - أي أنه - مع بداية القرن الثامن عشر لم يبق أي نفوذ للبرتغاليين، إلا أن الفوضى التي عمت إيران آنذاك أدت إلى تعرض مصالح البريطانيين والهولنديين والفرنسيين للخطر، فانشغلوا بالدفاع عنها مما هياّ الجوّ لاستقرار العتوب في المنطقة ومحاولة الحصول على مناطق يسيطون عليها نفوذهم اقتصادياً وسياسياً .

الأحوال السياسية في عمان

في عهد السلطان سيف بن سلطان (١١٩٢ إلى ١٧١١م) بلغت عمان قمة عظمتها فكان لها أسطول بحري قوي مجهز بالأسلحة الثقيلة حتى بلغ تسليح إحدى سفنه ثمانين مدفعاً وامتد نفوذ عمان إلى الساحل الشرقي لشبه الجزيرة الهندية وكذلك شرقي أفريقيا وانشغلت بذلك عن الخليج، ومنحت المجال للقبائل العربية ومنهم العتوب على سواحل الخليج، لتمارس التجارة والنقل، وأصبح للعتوب أسطولهم المجهز بجميع وسائل الدفاع وسهل لهم عملية الانتقال من قطر إلى البحرين ثم إلى البصرة .

الأحوال السياسية في إيران

كانت الدولة الصفوية بإيران في آخر عهدها بعد أن تولى الشاه سلطان حسين بن سليمان من ١٦٩٤ إلى ١٧١٣م بعد آخر ملوك الدولة الصفوية، وقد انهارت الدولة الصفوية بأسباب منها ازدياد قوة الأفغان الذين سيطروا على قندهار ومن بعدها وصلوا إلى العاصمة الإيرانية طهران . أما في مجال العلاقات الخارجية فقد وقع الشاه سلطان حسين (فرماناً) عام ١٦٩٧م حيث أعطى بموجبه الإنجليز امتيازات في التجارة والإعفاء من الضرائب، ونافسهم الهولنديون إلا أن الغلبة كانت للإنجليز، وتمكنت شركة الهند الشرقية من الدخول في مشروعات خاصة بها في إيران وعارضها الإيرانيون الأرمن حول تصدير الحرير والصوف مما شغل حكومة الشاه سلطان حسين عن أطماعها الخارجية . وأدى ذلك إلى تحرير البحرين من النفوذ الأجنبي بدخول أحمد الفاتح .

الأحوال السياسية في البصرة

لم تكن الأحوال السياسية في البصرة في أواخر القرن السابع عشر الميلادي أحسن مما كانت عليه في إيران، حيث شهدت كثيراً من الاضطرابات وانتشر فيها وباء الطاعون (١٦٨٩م)، فهاجر منها الكثيرون وشهدت خراباً دام أكثر من قرن ونصف القرن، وكانت تحت الحكم العثماني، بولاية الوالي (علي باشا)^(٦) الذي ساعده والي بغداد (مصطفى باشا) بعد أن كثرت عليه الفتن بقوة من أكثر من مائتي ألف مقاتل تمكنت من بسط السيطرة العثمانية على البصرة، وذلك ما حدا بالعتوب للقدوم إلى البصرة لطلب المساعدة من الدولة العثمانية^(٧)

الأحوال السياسية في الأحساء

كانت الأحساء آنذاك تحت الحكم العثماني اسمياً، أما الحكام الفعليون فقد كانوا من آل عريعر بزعامة (براك بن عريعر) من آل حميد من بني خالد، الذي احتل القطيف وخلفه أخوه (محمد) الذي وسع نفوذ بني خالد إلى خارج حدود الأحساء، وخلفه (سعدون)، وبعدها بدأت الخلافات الأسرية تضعف من نفوذهم منذ العقود الأولى من القرن الثامن عشر الميلادي مما سهل للقبائل العربية الأخرى، ومنها العتوب، الانفراد بالسيطرة على المناطق التي تقطنها^(٨). وقد عمت الاضطرابات جميع سواحل الخليج نتيجة للصراع بين القوى البرتغالية والعثمانية والفارسية، وكان البرتغاليون في آخر عهدهم كقوة مؤثرة في المنطقة قد انسحبوا، كما كانت الدولة العثمانية، بسبب افتقارها لأسطول قوي، غير قادرة على بسط نفوذها وفي حالة حرب مستمرة مع الفرس الذين لم يكونوا بأحسن حال من العثمانيين، أي أنه لم تكن هناك قوة من تلك القوى الثلاث قادرة على بسط نفوذها على الخليج. كما كان العمانيون مشغولين بفتوحاتهم بشرق أفريقيا وملاحقتهم للبرتغاليين، وقد هاجرت بعض القبائل العربية من الساحل الغربي للخليج إلى الساحل الإيراني ويدعون بـ (الحوله) واستقروا هناك ليشتغلوا بالغوص والتجارة ونافسوا عرب الساحل الغربي اقتصادياً مما سهل للعجم إثارة الفتنة بينهم.

وإذا حاولنا معرفة نسب آل خليفة فهم ينتسبون إلى قبيلة عنزه، أما تسميتهم بـ (العتوب) أو (بني عتبة) فذلك يعني حلفاً مكوناً من عدد من بطون وأفخاذ القبائل من ضمنهم (عنزه).

أما عن تاريخ دخول العتوب إلى البحرين فهناك مخطوط بعنوان (لؤلؤتي البحرين) من تأليف يوسف بن أحمد الدرازي ذكر فيه بيتاً من الشعر يؤرخ فيه (وقعة) كان العتوب طرفاً فيها حيث قال :

قضية القبيلة المعتدية وعام تلك (شتتوها) فاحسبه

وإذا رجعنا لحساب كلمة (شتتوها) نجد :

(ش = ٣٠٠) و(ت = ٤٠٠) + ت = ٤٠٠ و(و = ٦) + (ه = ٥) + (ا = ١) فالمجموع ١١١٢ هجري الموافق ١٧٠٠ ميلادي^(٩) . ويؤكد تلك الحقيقة التاريخية وثيقة عثمانية مؤرخة في ٢١ رجب ١١١٣ هـ الموافق ٢٣ ديسمبر ١٧٠١م وهي عبارة عن رسالة أرسلها والي البصرة (علي باشا) للسلطان العثماني في اسطنبول تذكر تواجد العتوب في البحرين آنذاك .

من كل ماتقدم يمكن أن نستخلص ما يلي :

أن دخول العتوب الأول للبحرين كان في بداية القرن الثامن عشر الميلادي . . وأن العتوب استقروا في قطر قبل ذلك بحوالي ٣٣ سنة وهي فترة كافية كي يتعودوا ركوب البحر ويبنوا السفن الكبيرة القادرة على المواجهة الحربية . كما أن الوثيقة العثمانية تذكر أن قوة العتوب الحربية البحرية كانت قوة لا يستهان بها في الخليج . فقد كانت سفنهم مزودة بالمدافع والبنادق، وكانت تلك الأسلحة تعتبر حديثة في نوعها، وأنهم اشتركوا في معركة بحرية في رأس تنورة ضد عرب الحولة كما ذكر الدرازي ولم تحالفهم الظروف فيها، وتوجهوا بعدها إلى البصرة على ظهر مائة وخمسين سفينة مزودة بالمدافع وعلى ظهر كل سفينة نحو أربعين مسلحاً بالبنادق وتحمل مدفعين أو ثلاثة مدافع، وكان عددهم يزيد على الألفين . وطلبوا من والي البصرة العثماني (علي باشا)

تحديد مكان لإقامتهم، ولقد رحب بهم والي البصرة وأرسل كتاباً إلى الباب العالي ذكر فيه عن خبرتهم في ركوب البحر والتجارة والغوص في مياه الخليج وعن قوتهم وصراعهم مع الدولة الفارسية . وبعدها حدد ميناء أم قصر كأول منزل لهم، ثم توجهوا بعد ذلك إلى (الكوت)، وهو حصن لابن عريعر من بني خالد حاكم الأحساء والقطيف آنذاك، وقد بناه مستودعاً ومركزاً حدودياً يحمي حكمه من جهة الشمال، وقد وهبه ابن عريعر للعتوب ليستقروا فيه وكان ذلك في العقد الأول من القرن الثامن عشر الميلادي، أي ما يعادل العقد الثاني من القرن الثاني عشر الهجري .

(الشيخ خليفة بن محمد المتوفى عام ١١٢٠هـ / ١٧٠٨م) وهو الجد الأكبر لأسرة آل خليفة وكان صاحب الرأي في قومه في الهدار والأفلاج في نجد لما عرف عنه من أصالة الرأي والحزم . وظعن مع قومه في أواخر القرن الحادي عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي، صوب الخليج العربي، وكانت لهم عدة بطون وأفخاذ من القبائل العربية، اجتمعوا في حلف واحد بعد أن جمعهم هدف واحد، وتصاهروا ليطلق عليهم اسم (العتوب)، وهي كلمة مشتقة من (عتب) بمعنى ارتحل . وأصبح الفرد منهم ينهي اسمه بكلمة (العتبي) وقد شارك الشيخ خليفة في الرحلة إلى قطر، وهناك انضم إليهم أقوام شملتهم العتبية ثم دخلوا البحرين ثم البصرة ومنها إلى أم قصر فالكويت بعد عام ١٧٠١م . وبعد أن استقر الشيخ خليفة الكبير في الكويت اهتم بالتجارة فزادت ثروته وبنى مسجداً مازال قائماً حتى اليوم بمسمى (مسجد آل خليفة) . وقد أوقف على المسجد قسماً من النخل الذي يملكه في القطيف . وبعد وفاته في الكويت خلفه أخوه الشيخ محمد بن خليفة .

الشيخ محمد بن خليفة

المتوفى عام ١١٨٦هـ / ١٧٧٢م

وهو ثاني شيوخ آل خليفة، خلف أباه وهو شاب، وزوجه عمه الشيخ صباح بن جابر ابنته (مريم) التي أنجبت له الشيخ (خليفة)، وذلك يدل على أن الشيخ محمد بن خليفة قد تزوج بعد وفاة أبيه حيث جرت العادة بعدم تسمية الابن باسم جده إلا بعد وفاة الجد . ثم تزوج الشيخ محمد بن خليفة بزوجته الثانية من (آل بنعلي) وأنجبت له الشيخ (أحمد) الذي لقب بـ (الفتاح) ومقرن، وبعد رحيله للزبارة تزوج الزوجة الثالثة من (آل بوكوارة) التي أنجبت له ابنه علي وإبراهيم .

وجدير بالذكر بأننا لا نؤيد أن الكويت تأسست سنة ١١٢٥هـ / ١٧١٣م، أو أن العتوب سكنوا الكويت سنة ١١٢٨هـ / ١٧١٦م، وذلك لأن بعض الوثائق العثمانية تذكر الكويت في عام ١١١٣هـ / ١٧٠١م، ووثيقة تثبت أن أول قاض في الكويت هو الشيخ (محمد بن فيرون) المتوفى ١١٣٥هـ / ١٧٢٢م، فلا بد أن الكويت قد اتسعت لتزايد عمرانها وزاد عدد سكانها مع مرور الزمن نظراً لما تتميز به من ميزات هي ميناؤها الممتاز لرسو السفن وموقعها التجاري وقربها من مغاصات اللؤلؤ، فاجتمعت كلمة العتوب على اختيار الشيخ (صباح بن جابر) حاكماً عليهم . والشيخ محمد بن فيروز قاض فيها وهذا يدل على أن المدينة تأسست منذ مدة من الزمن . ونحن نرى أن تأسيسها كان بعد ١١١٣هـ بقليل . وبمرور الوقت اتسعت الكويت وزاد عمرانها .

وفي تقرير لمدير شركة الهند الشرقية الهولندية عام ١٧٥٦م / ١١٧٠هـ يقول : أن للعتوب عدة شيوخ يعيشون في الكويت في وئام وأهمهم الشيخ مبارك بن صباح والشيخ محمد بن خليفة، وهو رجل غني يملك سفناً كثيرة ويتمتع

باحترام الجميع ، وكانت سفنه تصل إلى قطر حيث سكنوها فترة من الزمن قبيل سكناهم الكويت ، وذلك بعد أن نزحوا من مراتعهم في الهدار فقد عرفوها قبل نحو نصف قرن كما عرفوا البحرين منذ ١١١٢هـ / ١٧٠٠م . وجدير بالذكر أن آل بنعلي ، وهم قسم من العتوب وأخوال الشيخ (أحمد الفاتح) ، هاجروا من الكويت إلى (فريحه) في قطر عام ١١٤٥هـ / ١٧٣٢م . وكان التنقل ميسوراً حيث لم تكن هناك جوازات سفر وإنما كانت هناك (عشور) على التجارة وهي نوع من الضرائب^(١) .

وفي زمن الشيخ عبد الله بن صباح نزح الشيخ محمد بن خليفة ومن والاه إلى الزبارة وكان ذلك في حوالي عام ١١٧٦هـ / ١٧٦٢م لأسباب تضافرت مع بعضها بسبب خلاف حول تسليم أحد أبناء الشيخ محمد إلى بني كعب لتأخذ بثأر فتيلها الذي قتله أبناء الشيخ محمد دفاعاً عن النفس حين هاجمهم جماعة من قطاع الطرق وسط النهر . وقد عرض الشيخ محمد (الدية) بدل تسليم أحد أبنائه ولم يتحقق له ذلك فهاجر وأبناؤه ومن آزره من العتوب إلى الزبارة التي تقع على ساحل قطر الشمالي . ومعنى الزبارة من (الزبر) أي وضع الحجر فوق بعضه . ويطلق على المنطقة المرتفعة أو التلة الصغيرة . وتم اختيار الزبارة كموضع للسكن لقربه من الساحل والماء والمراعي والحطب .

ويعتبر الشيخ محمد بن خليفة هو المؤسس الأول للزبارة حيث لم يرد ذكرها من قبل سكنه فيها وبناء حصنه (صباحا) ، ولم يذكر الرحالة (نيبون) الزبارة ولم يصفها في خريطته التي رسمها عام ١٧٦٥م لأنها لم تعرف حينئذ وإنما أشار نيبور في خريطته إلى (القرين) وإلى (فريحة) وهي قرية ساحلية غرب الزبارة التي تأسست في عام ١١٧٦هـ / ١٧٦٢م .

وأتم الشيخ محمد بن خليفة بناء قلعة صباحا والتي أخذ اسمها من اسم قلعة الهدار، وسميت (مير) نسبة للماء الذي بنيت حوله وقد أرخت بجملة :

٨٤٠ ٧٩ ١٣٢ ٦٦ ٦٥

تمت بعز وعون الله حاميتها = ١١٨٢هـ الموافق لسنة ١٧٦٨م .

ونرجح تأسيس مدينة الزبارة على يد الشيخ محمد بن خليفة كما أوردنا في عام ١١٧٦هـ/١٧٦٢م لأن الشيخ محمد بن خليفة عندما انتقل من الكويت إلى الزبارة، تزوج من آل بوكوارة وأنجب من زوجته هذه ولديه علي وإبراهيم . ونجد أن علياً اشترك في معركة الزبارة وفتح البحرين في ١١٩٧هـ/١٧٨٣م وعمره وقتئذ حوالي ٢١ عاماً وهو شاب يستطيع حمل السلاح والاشتراك في المعركة . أما من يعتبر أن هجرة الشيخ محمد بن خليفة إلى الزبارة وتأسيسه لها في عام ١١٨٠هـ/١٧٦٦م فتنقصه الدقة في التوقيت إذ يصبح عمر علي بن محمد بن خليفة في وقت اشتراكه في المعركة نحو ١٦ سنة وهذا غير معقول لصغر سنه .

وازدهرت الزبارة منذ أسسها الشيخ محمد بن خليفة وكان من أول الأمر يدفع رسوماً لـ (آل مسلم)، ولكنه بعد بنائه قلعة (صباحا) امتنع ومن والاه من قبائل قطر عن دفع الرسوم لـ (المسلمي) مما أدى إلى نشوب معركة (السميسة) التي انهزم فيها المسلمي وأفل نجم (الحويلة) مركز نفوذ آل مسلم آنذاك .

الشيخ خليفة بن محمد بن خليفة

المتوفى عان ١١٩٧هـ / ١٧٨٣م

بعد وفاة الشيخ محمد بن خليفة عام ١١٨٦هـ / ١٧٧٢م، خلفه ابنه الأكبر خليفة وكان تقياً إذ تفقه بفقه الإمام مالك كما كان أديباً شاعراً ازدهرت الزبارة في عهده واتسعت رقعتها وعمرت اقتصادياً لعدم فرض الضرائب على السلع التجارية فأصبحت مركز جذب لكثير من التجار والمهاجرين ولقربها من مصائد اللؤلؤ نافست البحرين في تلك التجارة الرباحة في ذلك الوقت وأصبحت مركزاً هاماً لصيد اللؤلؤ وتوزيعه، فهاجر إليها الكثير من تجار البصرة وعلمائها وأدبائها خاصة بعد تعرض البصرة لوباء (الطاعون) حتى قيل (خراب البصرة . . . عمار الزبارة) . وتم بناء الكثير من المساجد والمدارس والأسواق في الزبارة . وقد أרך (لوريمس) ذلك الحدث لعام ١٧٧٣م .

وممن هاجر من العلماء والأدباء إلى الزبارة بكر بن أحمد البصري الزباري المتوفى ١٢٠٢هـ ومعاصره أحمد بن درويش العباسي ومحمد بن عبد اللطيف الشافعي الأحسائي وابنه عبد الله ومحمد بن فيروز والبيتوشي والعتيقي والهجري والطباطبائي وابن جامع وآخرون غيرهم . ومما يدل على نشاط الحركة الأدبية والعلمية بالزبارة وثيقة تشير إلى وقفية (كتب) أوقفها الشيخ خليفة بن محمد بن خليفة في مكتبة الزبارة على طلبة العلم بتاريخ ٢٤ رجب ١١٩٥هـ الموافق ١٨ يوليو ١٧٨١م^(١١) .

وكذلك الروزنامة (التقويم) الذي كتبه عبد الرحمن بن أحمد الزواوي الموضوع لعرض بلدة الزبارة التي بناها الشيخ خليفة بن محمد بن خليفة على حد قول الزواوي مما يثبت هذه الحقيقة التاريخية .

كما ساعد على ازدهار الزبارة ظهور حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية في نجد . كما أن الخلافات الأسرية بين آل عريعر أدت إلى ضعفهم بالأحساء، ونتج عن كل ذلك عدم الاستقرار واضطراب للأمن مما دفع بالكثير من سكان نجد والأحساء للرحيل والاستقرار بالزبارة خاصة التجار والعلماء . وفي فترة ازدهار الزبارة شهدت المنطقة حدوث قحط وغلاء، ففي سنة ١٧٦٧م ارتفعت الأثمان وشح الزاد في البلدان واستمر الغلاء في السنة التي تلتها، وسمي القحط والغلاء العظيم (سوقه) مات فيه خلائق كثيرون وجلا كثير من أهل المناطق المجاورة نحو الزبارة والأحساء وغيرهما . وفي ١٧٨٢م حدث وباء وحروب وقحط وغلاء يسمى (دولاب) استمر ثلاث سنين فكانت الزبارة موضع جذب^(١٢) .

ومما ساعد في تقدم الزبارة وتنامي ثروة سكانها التجارة الحرة الخالية من القيود والضرائب وقربها من مصائد اللؤلؤ ومغاصاته، فأصبحت الزبارة منطقة تجارة حرة، مما شجع الكثيرين من التجار، بمن فيهم تجار البحرين، واحتدت المنافسة بين الزبارة والبحرين التي كانت آنذاك تحت حكم آل مذكور وبدعم من حاكم أصفهان (علي مراد خان) . وبدأت الخلافات تظهر بين حكام البحرين وحكام الزبارة والتي تعود في أساسها إلى أسباب اقتصادية إذ أثر نماء الزبارة على موارد البحرين من التجارة وخاصة تجارة اللؤلؤ . وبدأ الشيخ نصر آل مذكور يعمل على إضعاف التحالف بين الكويت والزبارة ليتفرغ لغزو الزبارة وكتب إلى (شيخ القرين) يطلب الصلح ولم يتحقق له ذلك حيث اشترط شيخ القرين على الشيخ نصر آل مذكور شروطاً تعجيزية من ضمنها نصف دخل البحرين وقسم كبير من دخل بوشهر .

ويذكر (لوريمر) بأن حاكم أصفهان أمر المتولي على البحرين نصر آل
مذكور بمحاصرة الزبارة وكان ذلك في أواخر عام ١١٩٦هـ / ١٧٨٢م . وفي تلك
الفترة كان الشيخ خليفة بن محمد بن خليفة في مكة للحج ، ويقوم مكانه أخوه
الشيخ أحمد بن محمد بن خليفة .

وقد توفي الشيخ خليفة في الحج ودفن بمكة عام ١١٩٧هـ / ١٧٨٣م
وخلفه أخوه الشيخ أحمد . وقد جهز نصر آل المذكور حملة من ألفي مسلح -
وقيل أربعة آلاف - وقادها بنفسه في معركة انتهت بهزيمته وفتح البحرين .

المصاحف

- ١ - الهمداني .
- ٢ - الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة - الوثيقة، العدد ٨٦/١ .
- ٣ - عبد الله بن خالد، الوثيقة ١ - ٨٦ .
- ٤ - طغى الماء = ١٠٨٢هـ (١٦٧١م) وبحساب الجمل ط = ٩ + غ = ١٠٠٠ + م = ٤٠ + آ = ١ المجموع = ١٠٨٢ .
- أنظر : الوثيقة ١ / ٩٤ و ٩٥، الكويت وجيرانها، ص ٩٩ - ١٠٠ ؛ تاريخ الكويت ١/١٦/١ لوريمر، دليل الخليج ٣/١١٩٥ ؛ د. عبد العزيز المنصور، التطور السياسي لقطر ص ١٥٨ ؛ تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ص ١٢٦ و ١٢٧، الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة، الوثيقة ٨٦/١ .
- ٥ - تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ص ٦١ و ٩٦، الوثيقة ٩٠/١، دراسات في تاريخ الخليج العربي، ص ٦٣ ؛ عبد الله الحاتم، خيار ما يلتقط من الشعر النبئ، ص ٢٢٨ .
- ٥ - د. العابد، دور القواسم في الخليج العربي، ص ٢٠ ؛ دراسات في تاريخ الخليج العربي، ص ٣٧، الوثيقة ٩٨/١ ؛ وثيقة عثمانية رقم ١١١، ص ٧١٣ .
- ٦ - تولى علي باشا ولاية البصرة عام ١٦٩٩م .
- ٧ - ابن بشر، عنوان المجد ١/١٠٢ ؛ ودليل الخليج ٤/١٧٧٣ ؛ والوثيقة ١٠٠/١ ؛ والتحفة النبهانية ٤٥ و ٥٥ و ٢٨١ ؛ والعمرى، الدر المكنون، ص ٣١٤ و ٣١٥ (مخطوط) .
- ٨ - الأحسانى، تحفة المستفيد ١/١٢٣ و ١٢٤ ؛ والتطور السياسي لقطر، ص ١٣٣ ؛ وعنوان المجد ١/٢٥ ؛ وتاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد، ص ٤٧ و ٤٨ ؛ والوثيقة ١٠١/١ . وقد أرخ أحد أدباء نجد زوال ولاية آل عريمر (آل حميد) عن الحسا والقطف بقله :
- وتاريخ الزوال أتى طباقاً (وغار) إذ انتهى الأجل المسمى وبحساب الجمل لكلمة (وغار) : و = ٦ + غ = ١٠٠٠ + آ = ١ + ر = ٢٠٠ المجموع = ١٢٠٧هـ الموافق ١٧٩٥ وهي سنة زوال حكمهم .
- ٩ - لؤلؤتي البحرين : مخطوط في البحرين ونسخه في المكتبة السليمانية باسطنبول، ورقة ٢٤١ و ٢٤٢ .
- ١٠ - التحفة النبهانية ١٢٨ ؛ والشيخ عبد الله بن خالد، الوثيقة ١٧/٤ .
- ١١ - تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد، ص ٩٥ و ١١٣ و ١٢١ ؛ وتاريخ نجد ٢/٧٦ و ٧٧ ؛ والوثيقة ٢٠/٤ .
- ١٢ - تقرير من لانتوش المقيم التجاري في البصرة رقم ٢٩/٢١ مجلد ١٧، رقم الإرسال ١/٢٣٠ الوثيقة ٢١/٤ .